الأدب العربي الحديث
دراسة في شعره ونثره
الدكتور سالم المعدني

(الفصل السابع)

تطور النثر العربي الحديث عوامله ومظاهره

أخذت بوادر الضعف والعقم تظهر في الأدب العربي ، شعرهِ ونثرهِ ، منذ احتلال بغداد على أيدي المغول في عام ٦٥٦ هـ ، واستفحل ذلك وأصبح معلماً بارزاً من معالم أدبنا في العهد العثماني حيث أُهمِلت اللغة العربية وصارت اللغة التركية لغة الدولة الرسمية .

عاش الوطن العربي خلال عِدّة قرون انكساراً حضارياً ، أصبح فيها كل شيءٍ باعثاً على التخلف والضعف ، فالنظام السياسي أنعزل عن الشعب وصار قائماً على العنف والجور ، فاختلفت المساواة بين الناس وانتشرت الرشوة وأهملت مرافق البلاد الرئيسة ودمرت مصادر الثورة فانتشر الفقر والبؤس ، وأصبح المجتمع يتكوّن من طبقتين رئيستين هما طبقة الأغنياء من الولاة والأمراء وحاشيتهم ، وطبقة الفقراء التي تشمل أغلبية الشعب . كذلك هُدمت المدارس وتفشي الجهل والأميّة بين الناس واقتصر التعليم على الكتاتيب وبعض المعاهد الدينية . وفي الوقت نفسه تدهورت الصحّة العامة فانتشرت الأمراض والأوبئة الفتّاكة ، مِمّا أدّى إلى هلاك أعداد كبيرة من السُكان .

كان طبيعياً أن تؤثر هذه الأجواء الشاذة في الأدب سلباً ، فقد ضعف الأدب شعراً ونثراً وساده الانحطاط إذ صار ألاعيب لفظية وأداة من أدوات التسلية ، فلم يبق فيه مظهر من مظاهر العاطفة أو الفكر وظهرت فيه الركاكة والعجمة والعامية .

إن النثر العربي ـ وهذا هو موضوعنا ـ كان نصيبه من هذا الضعف ، خلال هذه

الفترة ، أكبر من نصيب الشعر ، ذلك لأن النثر ـ كما هو معروف ـ يرتبط ارتباطاً كبيراً بالفكر والثقافة ، فما دام الفكر والثقافة متخلفين ، فلا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن ينهض النثر ، فهو أبن الفكر والحضارة ، يعيش بوساطتهما ، ويستمد أسباب حيويته منهما.

فالنثر في هذا العصر فقد روحه وصار بعيداً عن الفكر والشعور في الوقت ذاته . إذا ما العمل وكيف يمكن أن يستر على نفسه ، وهو خاوٍ فكراً وشعوراً ؟ لم يجد أمامه إلا أن يلجأ إلى الزخارف اللفظية والألاعيب البديعية حتى يُعوّض عن هذا النقص الذي وجده في كيانه ، فكان أن طغى السجع على أسلوب النثر ، وشاركه في ذلك البديع ، الأمر الذي جعل أسلوب النثر أسلوباً مزخرفاً ومتكلفاً ومفتقراً إلى كل ما يَمُت بصلة إلى الأدب الحي ، وصارت الشقة واسعة جداً بين هذا الأسلوب وأسلوب النثر في عهوده الأولى .

ولم يسر هذا الضعف في أسلوب النثر حسب ، بل تعدّاه إلى مضمونه، إذ ضاقت موضوعاته وغدت موضوعات ساذجة ، ودارت على بعض الإخوانيات والخطب والمناظرات.

ظلت هذه الخصائص والسمات في النثر العربي حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث أخذت تظهر عوامل ومُستجدّات في المجتمع العربي تعمل على تغير النثر ونهضته حتى يتلاءم وروح العصر .

وفيما يأتي أهم هذه العوامل التي عملت على نهضة النثر العربي الحديث :

يقظة الأمّة العربية :

على أثر ضعف الدولة العربية الإسلامية وتفككها إلى دويلات وإمارات ومجيء الحكم العثماني ،أستغرق المجتمع العربي سبات سياسي ، وعد العرب أنفسهم جزءً من الإمبراطورية العثمانية التي ضمّت أغلب الأقطار العربية .

كان من أسباب هذا السُبات ضياع السيطرة العسكرية والتجارية التي كانت للعرب أيام ازدهار حضارتهم ، وعزلة العرب عن العالم . لكن مع حلول العصر الحديث ، وبالذات منذ مطلع القرن التاسع عشر ، أخذت الأمة العربية تعي ذاتها وتستيقظ من سُباتها،

إذ عادَ العرب يحسون بكيانهم وأنهم يشكلون أمة لها خصائصها الذاتية . من هنا بدأوا يُطالبون بحقوقهم وتحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية والثقافية .

بدأ هذا أولاً بالنضال من أجل أدخال إصلاحات مختلفة على المجتمع العربي ضمن الإمبراطورية ، ثم تطور ذلك فظهرت حركات وتنظيمات سياسية تدعو إلى الانفصال عن الدولة العثمانية ومنح العرب الاستقلال السياسي .

لقد أعان على هذه اليقظة جملة عوامل ، لعلّ من أهمها أتصال العرب بالعالم الخارجي ولا سيما العالم الأوربي ، بعدّ عزلة طويلة عن العالم دامت عِدّة قرون .

كانت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت على مصر في أواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٨) بداية الاتصال بين العالم العربي و أوربا في العصر الحديث . والمعروف أن نابليون جهز حملته تجهيزاً عسكرياً وعلمياً ، فأدخل معه إلى مصر مطبعة وأصدر جريدة وأسس مسرحاً ومجمعاً علمياً على غرار المجتمع العلمي الفرنسي ومعامل ومستشفيات ، وطبّق في الوقت ذاته بعض التنظيمات الإدارية الحديثة أثناء حكم مصر .

لكن الحملة ، على الرغم من ذلك ، لم تترك آثاراً خطيرة في مصر ، بخلاف ما يراه بعض الباحثين من أنّ الحملة أفادت مصر فائدة كُبرى وكانت سبباً في نهضتها الحديثة . ولعلّ ذلك يعود إلى عِدّة عوامل منها :

١ـ إن المصريين استقبلوا الحملة بروح عدائية شديدة تمثلت في مقاومتهم العنيفة والمُستمرة لها بمختلف الصور السلبيّة والإيجابية ، وذلك لأن الحملة الفرنسية كانت عندهم امتداداً للحروب الصليبيّة في أرض مسلمة .

٢ـ عدم استعداد المصريين الحضاري لفهم وتفسير سلوكية وتصرفات الفرنسيين التي كانت تبدو لهم غاية في الغرابة .

٣ـ كان علماء الحملة غُرباء عن البلاد بلغتهم وعلمهم ، وقد اقتصرت صلتهم بالعلماء المصريين على الصلة السطحية التي لا تعدو عرض كتبهم الفرنسية التي لا يستطيع المصريون قراءتها ، وعرض بعض تجاربهم العلمية .

٤ـ قصر المدّة التي قضتها الحملة الفرنسية في البلاد وعدم قدرتها على تثبيت

مركزها.

على أن الأثر الواضح للحملة تمثل في ردِّ الفعل الذي أحدثته في نفوس المصريين، إذ كانت الحملة بالنسبة إليهم أول مظهر من مظاهر التحدي الغربي لحضارتهم، وقد كشف لهم هذا التحدي عن سوء واقعهم ونبههم إلى ضرورة تغيير هذا الواقع إذا أرادوا المحافظة على كيانهم وحماية بلادهم من الغزو الأجنبي، كما أنه كشف لهم عن قوتهم التي ظهرت بوضوح في مقاومتهم المستمرة للحملة في الوقت الذي تحطمت فيه القوة العسكرية للمماليك والاترالك من الجولة الأولى[1].

منذ ذلك الوقت أخذت قطاعات الشعب المختلفة تسعى من أجل تغيير واقعها السيء في مصر وغيرها من الأقطار العربية، وصارت تتحرك ليكون لها دور في أمور السياسة والحكم، وبدأ يظهر ما يسمى بالرأي العام الذي يعبر رأي الشعب في القضايا السياسية والاجتماعية، ولعلّ أول مظهر لذلك تمثل في مشاركة بعض فئات الشعب في انتخاب محمد علي حاكماً على مصر، بعد انسحاب الفرنسيين منها، ولو أنه ضرب هذه الفئات بعد تثبيت حكمه، وفي ثورة أحمد عرابي التي قامت في عهد إسماعيل، وتمثل فيما بعد النشاط السياسي الشعبي في ظهور جمعيات وحركات وأحزاب سياسية شهدتها مصر وسوريا والعراق وأصبحت علامة بارزة على اليقظة السياسية للأمّة العربية، وأهمها جمعية بيروت السرية وجمعية الإخاء العربي العثماني والجمعية القحطانية وجمعية «حفظ حقوق الملة العربية» التي وجهت نداء إلى العرب مسلمين ومسيحيين تحت عنوان «بيانات الأمة العربية» دعتهم فيه إلى الاتحاد والمطالبة بالحقوق القومية.

جعل التحدي الغربي العرب يبحثون عن وسيلة يعتمدون عليها للوقوف أمام هذا التحدي، أما واقعهم فقد التفتوا اليه باحثين فيه عمّا يصدون به هذا التحدي، لكنهم لم يعثروا فيه على ضالتهم، إذ كان هذا الواقع واقعاً متخلفاً، كل ما فيه ينم على الضعف والانحطاط، من هنا كان التفاتهم إلى الماضي حتى يسعفهم بما لم يجدوه في حاضرهم،

---

(١) تطور الرواية العربية الحديثة في مصر: عبد المحسن طه بدر، ص ١٥ ـ ١٧.

فكان أن وجدوا فيه تراثاً حضارياً مشرقاً زاخراً بالعطاء والإبداع . لهذا راحوا يرجعون إلى التراث العربي القديم ، يبعثونه ويستلهمونه ويستمدون منه القوة لصد هذا التحدي الحضاري الذي يهدد كيانهم ووجودهم .

ومهما يكن من أمر فقد ظهرت ثلاثة مواقف أثر اللقاء بين الحضارة العربية والأوربية ، أمّا الموقف الأول فقد قام على رفض الحضارة الأوربية كُلياً وبعث الحضارة والثقافة العربية القديمة لتكون بديلاً عن هذه الحضارة الأجنبية . وأمّا الموقف الثاني فقد أعجب بالحضارة الأوربية ودعا إلى اقباسها والذوبان فيها كلياً . وأمّا الموقف الثالث فقد قام على محاولة التوفيق بين الحضارتين والجمع بين إيجابيات الاثنتين .

كان وراء اليقظة العربية الحديثة أعلام ساهموا بفكرهم النيّر وأعمالهم الجليلة في بعثها ووضع أُسُسها الفكرية .

يقف في طليعة هؤلاء الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ـ ١٨٧٣) الذي يعد أمام النهضة العلمية في مصر والعالم العربي . كان الطهطاوي شيخاً أزهرياً أختاره محمد علي إماماً لبعثته الأولى إلى فرنسا ، وبفضل ذكائه ونفسه الطموح أتقن الفرنسية وأخذ يقرأ بها سائر العلوم والمعارف ، وألف وهو في فرنسا كتاباً سماه «تخليص الابريز في تلخيص باريز» ضمنه مشاهداته وانطباعاته في فرنسا ، كذلك عرّب فيها عدداً من الآثار في علوم ومعارف مختلفة . وبعد عودته إلى مصر عزم على نقل العلم والحضارة الأوربيين إلى بلاده ، فأسس مدرسة الألسن التي اهتمت بتدريس اللغات الأجنبية وقام بترجمة عدد من الكتب الفكرية والعلمية الفرنسية إلى اللغة الغربية . وفي الوقت ذاته ألفّ كتاباً في التربية والاجتماع .

إن أهمية الطهطاوي تكمن في كونه أول مفكر عربي يتصل بالغرب في العصر الحديث وينقل عنه علومه ومعارفه وينادي بأفكار ودعوات سياسية واجتماعية ذات طابع حضاري وتقدمي ، تترك آثاراً عظيمة في البلاد وتؤثر في مفكرين يكون لهم دور كبير في تاريخ مصر فيما بعد .

ومن أعلام النهضة العربية الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ـ ١٨٨١) الذي أهتمّ بإحياء

اللغة العربية عن طريق تدريسها ونظم الشعر بها وكتابة المقالات والمقامات ، حتى عُدّ أول أستاذٍ كبير للعربية في لبنان إبان القرن التاسع عشر .

ومثله أبنه ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ـ ١٩٠٦) الذي اشتهر بنزعته القومية التي دفعته إلى نظم قصائد حماسية في القومية العربية ، منها بائيته المشهورة:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طمى السيل حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم ... وأنتم بين راحات القنا سلب
كم تُظلمون ولستم تشتكون وكم ... تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

ومثلهما بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) الذي قام بأعمال جليلة في خدمة اللغة العربية ، لعلّ أهمها تأسيس «المدرسة الوطنية» في عام ١٨٦٣، وقد أقامها على مبدأ وطني لا ديني ، واهتمّ فيها أساساً بتدريس اللغة العربية والعلوم الحديثة، كما قام بتأليف قاموس سماه «المحيط» والموسوعة العربية في عِدّة مُجلدّات ، وأصدر جريدة «الجنان» .

ومن هؤلاء عبد الرحمن الكواكبي (١٨٣٩ـــ ١٩٠٢) مؤلف كتابي «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» و «أم القرى» ، وقد دعا فيهما إلى نقل الخلافة مجدداً إلى العرب ، لأنهم وحدهم يستطيعون حفظ الإسلام من الفساد وذلك لمركز الجزيرة العربية في الأمة ولمكانة اللغة العربية في التفكير الإسلامي .

أما المفكر السوري نجيب العازوري (١٨٨١ـ ١٩١٦) فقد أصدر في باريس مجلة باسم «الاستقلال العربي» ثم نشر كتاباً بالفرنسية بعنوان «يقظة الأمة العربية» ذهب فيه إلى أن هناك أمة عربية واحدة تظم مسلمين ومسيحيين ، ووجوب استقلال العرب عن الأتراك ، ورسم في الكتاب الخطوط الكبرى للدولة العربية المستقلة .

إن هؤلاء الأعلام والمفكرين أسهموا في «خلق نثر عربي حديث صالح للتغيير

البسيط والدقيق المباشر عن مفاهيم الفكر الحديث»[١].

لقد عملت اليقظة السياسية والنهضة الفكرية للعرب وكتابات هؤلاء الأعلام وغيرهم على نهضة النثر العربي الحديث عن طريق تطويعه للتعبير عن مختلف الأفكار والقضايا السياسية والاجتماعية كذلك جعلت النثر يتخلص من الزخارف اللفظية ، وذلك بالاهتمام بالمعنى بدلاً من اللفظ ، وأعانت في الوقت عينه على إيجاد موضوعات كثيرة ومتنوعة فيه .

وعلى العموم تكونت من اليقظة القومية حركة أدبية ساهم فيها الشعر والنثر ، عبرت عن تطلعات العرب وخوالجهم القومية .

البعثات :

بدأت البعثات العلمية إلى أوربا في عهد محمد علي الذي أكثر من هذه البعثات العلمية ، وكان هدفه فيها تقوية جيشه وجعله على غرار الجيوش الأوربية ، وبناء دولة على وفق الأسس الحديثة . ولتحقيق هذا الغرض بدأ أولاً بتأسيس مدارس حديثة في مصر ، وجلب لها أساتذة أوربيين ، غير أنه رأى فيما بعد أن الفائدة المرجوّة في ذلك لا تتحقق إذا لم يكن المدرسون والعلماء من أبناء البلاد . لهذا ، وللتعجيل في تحقيق أغراضه ، راح يرسل البعثات إلى أوربا ليتخصص أبناء البلاد في سائر العلوم التطبيقية .

بدأت البعثة الأولى إلى فرنسا في عام ١٨٢٦، وضمّت أربعة وأربعين طالباً للتخصص في الهندسة والطب والزراعة والكيمياء والطباعة والميكانيك ، واختار لها رفاعة الطهطاوي إماماً .

وتوالت البعثات فيما بعد ، حتى أصبحت إحدى عشرة بعثة ومنها البعثة الطبية الكبرى في عام ١٨٣٢، وقد ضمّت الطلبة النابهين في مدرسة الطب المصرية ، وفي عام ١٨٤٤، أرسلت بعثة ضمّت بعض الأمراء من أسرة محمد علي وكانت آخر بعثاته الكُبرى .

---

(١) الفكر العربي في عصر النهضة : البرت حوراني . ص ١٢٧.

ومن أجل هذه البعثة فتح محمد علي مدرسة في باريس سمّاها «مدرسة البعوث» ، ومن أشهر رجالها علي مبارك ، وتوقفت هذه البعثات في عام ١٨٤٧ .

لقد ضمّت هذه البعثات ٣١٩ طالباً ، واتخذ محمد علي من نوابغهم معلمين ومترجمين وأطباء لجنده وموظفين لحكومته .

توقفت البعثات في عهد عباس الأول وسعيد، لكنها استؤنفت في عهد إسماعيل بسبب انفتاحه على أوربا . وفيما بعد صارت الأسر الثرية ترسل أبناءها للدراسة في الدول الأوربية . هذا ما حدث في مصر . أما في الأقطار العربية الأخرى فقد تأخر إرسال البعثات التعليمية إلى أوربا ، ففي العراق مثلاً لم تبدأ إلاّ في أواخر العشرينات من هذا القرن ، وزادت في أوائل الثلاثينات .

كان للبعثات أثر كبير في نهضة مصر وإدخال العلم الحديث اليها . كما كان لها فضل في إحياء اللغة العربية وجعلها مسايرة للعلم الحديث ، بما ترجم أعضاؤها من كتب، وما أدخلوه من مصطلحات ، وما ألفوه في شتى نواحي العلم[1] .

المدارس :

عُرفت مصر قبل غيرها من الأقطار العربية المدارس الحديثة في عهد محمد علي ، وكان غرضه في تأسيسها ـ كما ذكرنا ـ تقوية جيشه وتوطيد أركان دولته . ومن أهم المدارس التي أسسها المدرسة الحربية ومدرسة الطب ومدرسة الصيدلة والهندسة ومدرسة الولادة والتمريض ومدرسة الألسن .

وعلى الرغم من أن طابع هذه المدارس كان طابعاً عسكرياً وعملياً ، استطاعت أن تخلق في مصر بدايات نهضة علمية . لكن التعليم يُصيبه الركود بعد موت محمد علي وابنه ابراهيم ، إذ لا يهتم به عباس وسعيد . ومع عهد إسماعيل (١٨٦٣) تعود الحياة إلى المدارس إذ يهتم بها إسماعيل ويُنوعها فيجعلها ابتدائية وثانوية وعالية ، ويفتتح مدارس

---

(١) في الأدب الحديث : عمر الدسوقي . جـ١ . ص ٢٨ ـ ٢٩.

للبنات . وأنشئت في عهده نظارة المعارف وعهدَ إليها تنظيم المدارس على نمط حديث ، كما يؤسس مدارس جديدة منها مدرسة الإدارة التي تصبح فيما بعد مدرسة الحقوق ، ومدرسة دار العلوم ومدرسة المعلمين ويطور مدرسة الألسن لتخريج المترجمين . وفي هذا الوقت أيضاً ينشئ الأجانب مدارس خصوصية .

لكن النشاط التعليمي يضعف مع احتلال الانكليز مصر في عام ١٨٨٢، إذ يحاربون المدارس الحكومية ويشجعون المدارس الأجنبية ، غير أنهم ، فيما بعد ، يتراجعون أمام ضغط الرأي العام الذي يطالب بعودة المدارس الحكومية التي تدرس باللغة العربية ، فتنتشر المدارس وتشمل سائر المحافظات .

ويشهد عام ١٩٠٨،إفتتاح الجامعة المصرية بجهود ومساعي مصطفى الغمراوي ومصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم أمين ، وتبدأ بإرسال البعثات إلى أوربا لتخريج أساتذة لها . كما تتعاقد مع أساتذة أوربيين للتدريس فيها ، الأمر الذي يجعلها تلعب دوراً كبيراً في نهضة مصر ونهضة الفكر العربي الحديث . وفي الوقت ذاته يبسط التعليم في الأزهر وتدخله مناهج وعلوم حديثة حتى يصبح جامعة ،يكون لها أيضاً دور مشهود في تاريخ الفكر العربي الحديث.

أما في لبنان فقد كثرت المدارس خلال القرن التاسع عشر بسبب المنافسة بين البعثات التبشيرية والطوائف المسيحية ، ولاسيما بعد حوادث ١٨٦٠ الدامية ولعلّ أكثر هؤلاء الذين أهتموا بالمدارس الآباء العازاريونواليسوعيون الأمريكيون . وأشهر هذه المدارس المدرسة الوطنية التي أسسها بطرس البستاني في عام ١٨٦٣ والمدرسة الرشدية والكلية الأمريكية في عام ١٨٦٦، وكانت لغة التدريس فيها في البداية العربية ، والكلية اليسوعية في بيروت التي أسسها الآباء اليسوعيون عام ١٨٧٤، وجمعت بين الدراسات الأدبية والدراسات العلمية .

وأما سوريا فقد كانت بدء اتصالها بالعالم الحديث مع دخول الجيش المصري اليها بقيادة ابراهيم باشا في عام ١٨٣١، إذ أخذت الأفكار والأنظمة الحديثة تتسلل اليها لقد عمل ابراهيم باشا على تطبيق برنامج واسع للتعليم الابتدائي والثانوي ، واستطاع هذا

البرنامج التعليمي ، على الرغم من عمره القصير ، أن يحدث يقظة شديدة في التعليم القومي ، إذ كان يستهدف تنبيه الوعي القومي بين الطلاب[1]. كما شهدت سوريا نشاطاً تعليمياً حين تولى مدحت باشا ولايتها في عام ١٨٧٨ إذ أسس عدة مدارس للذكور والإناث في دمشق والمدن السورية الأخرى ، واستمر التوسع في التعليم فيما بعد على الرغم من الطغيان السياسي ، حتى صار عدد المدارس (٢٦٦) مدرسة ، منها مدرسة للطب ومدرستان للمعلمين ، تخرج فيها قواد حركة التنوير والتحرر في العالم العربي . كذلك أسهمت البعثات التبشيرية في أنشاء عدد كبير من المدارس في دمشق وحلب وحمص .

لكن النشاط التعليمي في العراق تأخر بالقياس إلى مصر وسوريا ولبنان وذلك بسبب العزلة التي فرضت على العراق أثناء الحكم العثماني ، فلم يشهد العراق في القرن التاسع عشر إلا بعض المدارس الدينية والتركية التي لم تترك إلا آثاراً ضئيلة في الحياة الفكرية للبلاد . وعندما دخل الانكليز بغداد فتحوا فيها بعض المدارس لتخريج الموظفين للخدمة في دوائر الدولة المختلفة . وبعد قيام ما يسمى بالحكم الوطني زاد عدد المدارس في بغداد ومدن أخرى ، وترتفع النسبة بعد الحرب العالمية الثانية. وفي الوقت ذاته تأسست كليات نهضت بالتعليم العالي مثل كلية الحقوق والطب ودار المعلمين العالية .

وعلى العموم ساهمت المدارس مساهمة عظيمة في نشر التعليم والثقافة في الوطن العربي وتخريج الكُتّاب والمثقفين الذين تقوم على أيديهم النهضة العربية الحديثة . كما تلعب هذه المدارس دوراً عظيماً في نشر اللغة العربية والنهوض بها ، وبعث الأسلوب المرسل في النثر بدلاً من الأسلوب المزخرف والمسجوع ، لأن هذا الأسلوب المرسل هو الذي يكون قادراً على استيعاب العلوم والمعارف الحديثة وإيصالها إلى الطلاب وسائر الناس .

الترجمة :

---

(١) محاضرات عن القصة في سوريا : شاكر مصطفى . ص ٢١ .

عرف العالم العربي الترجمة مع اتصاله بالعالم الأوربي في مطلع القرن التاسع عشر ، وبدأت مع البعثات الأولى إلى أوربا ، وكان رفاعة الطهطاوي رائد هذا الاتجاه ، فقد عرف بعقله النيّر أهمية العلوم الأوربية ومدى حاجة مصر اليها ، من هنا كان سعيه العظيم إلى ترجمة العلم والفكر الأوربي إلى اللغة العربية وتخريج المترجمين بوساطة مدرسة الألسن .

غلب على حركة الترجمة في البداية الطابع العلمي ، إذ كانت حاجة البلاد إلى العلوم أكثر من الآداب ، لذلك أنصب الاهتمام على ترجمة الكتب العلمية كالطب والهندسة والكيمياء وعلوم النبات والحيوان . وقد أفادت ترجمة العلوم في هذه الفترة اللغة العربية فائدة كبيرة ، إذ مرنتها على استيعاب القضايا والأفكار العلمية ، وولدت فيها عدداً كبيراً من الكلمات المُعربة والمصطلحات العلمية ، بعدّ ذلك غلب عليها الطابع الأدبي الذي تمثل في ترجمة القصص والروايات والمسرحيات .

تمّ أغلب الترجمات في مصر وساهم فيها المصريون والسوريون واللبنانيون الذين نزحوا اليها هرباً من الطغيان العثماني أو بحثاً عن الرزق . وأشهر هؤلاء المترجمين أديب إسحاق وسليم نقاش ونجيب حداد وخليل مطران وفرج أنطوان وفتحي زغلول ومحمد عثمان جلال ولطفي جمعة .. الخ .

كان للترجمة فضلٌ عظيمٌ على نهضة النثر وتقدمه ، فهي خلّصت النثر من القيود البديعية الثقيلة ، بسبب الاهتمام بالمعاني بدلاً من الجوانب الشكلية . ولو أن المترجمين الأوائل استخدموا أسلوب السجع والبديع في الترجمة أمثال رفاعة الطهطاوي وجماعته . لكن الترجمة فيما بعد اضطرّت أصحابها أن يهجروا الأسلوب الذي ترجم به الطهطاوي وتلاميذه ، أعني أسلوب السجع والبديع ، فقد رأوه يفسد المعاني التي يريدون نقلها إفساداً لسبب بسيط هو أنه لا يتسع لها ولا يتيح للمترجم أن يعبر عنها إلاّ تعبيراً مضطرباً أو تعبيراً ممتلئاً بعوائق السجع والبديع .

الطباعة :

لم تكن مطبعة نابليون أول مطبعة عربية عرفها الشرق العربي ، فسوريا ومدينة حلب بالذات شهدت أول مطبعة عربية في مطلع القرن الثامن عشر . وهذه المطبعة صارت فيما بعد أم المطبعة اللبنانية الأولى التي أنشأها عبد الله زاخر في حوالي ١٧٣٤، وجلبت مطبعة ثالثة هي مطبعة القدّيس جاورجيوس حوالي سنة ١٧٥٠. لكن هذه المطابع بسبب الظروف السياسية السائدة آنذاك ، لم تستطع أن تؤدي أية خدمة فكرية[1] .

ووصلت لبنان المطبعة الأمريكية في عام ١٨٣٤، ثم المطبعة الكاثوليكية في ١٨٤٨ ومطبعة خليل الخوري في عام ١٨٥٧ ومطبعة المعارف لبطرس البستاني سنة ١٨٦٧ ..الخ .

وفي سوريا ظهرت المطبعة الثانية في عام ١٨٥٥ وهي المطبعة الحفنية . وفي دمشق ظهرت مطبعة ولاية سورية الرسمية في عامُ ١٨٦٤ وطبعت بها جريدة «سورية» العربية التركية ، وكثرت بعدّ ذلك المطابع في دمشق وحمص وحماه ، ولو ظل انتاجها من الكتب قليلاً.

أما في مصر فأول مطبعة يكون لها شأن عظيم في نشر الكتب مطبعة بولاق التي أسسها محمد علي في سنة ١٨٢١ على انقاض مطبعة نابليون ، وتأسست إلى جانبها مطابع أميرية أخرى . وبعدّ فترة تأسست المطبعة الأهلية القبطية ومطبعة «وادي النيل» ومطبعة المعارف ، كما تأسست مطابع أخرى في الاسكندرية وبورسعيد والمنصورة وغيرها .

وأما في العراق فقد أسست البعثات التبشيرية بعض المطابع مثل مطبعة الدومنيكان في الموصل ، غير أنها لم تترك آثاراً تذكر في نهضة البلاد . كما أسس مدحت باشا أثناء ولايته في العراق مطبعة طبع بها جريدة «الزوراء» في عام ١٨٦٨ .

لعبت هذه المطابع دوراً عظيماً في نشر المخطوطات العربية وإيصال الكتب إلى مختلف طبقات الشعب . والمطابع هي التي أخرجت إلى النور كنوز الثقافة العربية القديمة وجعلت الأدباء والكُتّاب يتعرفوا لها ليجدوا فيها أسلوباً مرسلاً لا تكلف فيه ولا قيود ، بل جمال وبساطة وفصاحة . وفي الوقت ذاته عرف هؤلاء بوساطة المطابع الثقافة الغربية التي

---

(١) محاضرات عن القصة في سوريا . ص ٢٤ ـ ٢٥.

وجدوا فيها أسلوباً مرسلاً وسهلاً يُعنى عناية كبيرة بالمعاني والأفكار ويؤثرها على ما سواها ، فكان كل ذلك عاملاً مهماً من عوامل نهضة النثر العربي .

الصحافة :

لم تُعرف الصحافة في العالم العربي إلا في القرن التاسع عشر ، وعرفتها مصر قبل غيرها من الأقطار العربية ، فقد أصدر فيها الفرنسيون صحيفتين باللغة الفرنسية ونشرت باللغة العربية سموها «التنبيه» . لكن أول صحيفة عربية عامة أصدرها محمد علي في سنة ١٨٢٨ وسماها «الوقائع المصرية» صدرت أولاً باللغة التركية ثم بالعربية والتركية وفيما بعد اقتصرت على العربية وحدها . بعدها صدرت مجلة طبية باسم «اليعسوب» في ١٨٦٥. وبعد عام صدرت صحيفة «وادي النيل» . ثم أصدر ابراهيم المويلحي ومحمد عثمان وجلال جريدة أسبوعية باسم «نزهة الأفكار» في عام ١٨٦٩. وحين توقفت الجريدة صدرت على انقاضها مجلة علمية أدبية باسم «روضة المدارس» ساهم في تحريرها علي مبارك ورفاعة الطهطاوي والشيخ حسين المرصفي ، وقد ملأت المجلة فراغاً ملحوظاً وعملت على نهضة اللغة والأدب .

وعلى أثر نزوح السوريين إلى مصر ، زاد عدد الصحف والمجلات إذ نشطت الصحافة على أيدي هؤلاء الذين أفادوا من الحرية التي كانت تتمتع بها البلاد آنذاك . ولعلّ أهم ما أصدره هؤلاء من الصحف جريدة «الاهرام» التي أنشأها الإخوان بشارة وسليم تقلا في عام ١٨٧٥، ولاتزال تصدر حتى يومنا هذا ، و «المقتطف» في ١٨٧٦ و «المحروسة» التي أصدرها أديب أسحق وسليم نقاش في عام ١٨٧٩، و «المقطم» لآل صروف في عام ١٨٨٨ ، ومجلة «الهلال» لجرجي زيدان في عام ١٨٩٢ .

ومع مطلع القرن العشرين ، أخذت تظهر صحف الأحزاب السياسية ومنها «اللواء» لمصطفى كامل ، لسان حال الحزب الوطني . بعد ذلك صدرت عشرات الصحف والمجلات الاسبوعية والشهرية .

وفي لبنان صدرت صحف دينية ، أنشأتها البعثات التبشيرية منذ منتصف القرن

التاسع عشر ، ثم صدرت جريدة «حديقة الأخبار» في بيروت عام ١٨٥٨ لصاحبها خليل الخوري ، وجريدة «لبنان» أصدرها داود باشا سنة ١٨٦٧، ومجلة «الجنان» لبطرس البستاني في عام ١٨٧٠ وقد جمعت بين الأدب والعلم والسياسة . وتوالى صدور الجرائد والمجلات فيما بعد .

وفي سوريا أصدر بعض السوريين صحفاً في الأستانة مثل «مرآة الأحوال» التي أصدرها رزق الله حسون الحلبي في ١٨٥٥ و «السلطنة» في ١٨٥٧، و «الجوائب» التي أصدرها أحمد فارس الشدياق في ١٨٦٠ وكان لها شأن عظيم عند أدباء العرب .

وفي المدن السورية صدرت جريدة «سورية» في عام ١٨٦٥، أنشأها الوالي راشد باشا في دمشق ، ثم صدرت جريدة «دمشق» في ١٨٧٨ و «مرآة الأخلاق» في عام ١٨٨٦. وبعد انقضاء حكم عبد الحميد صدر عدد كبير من الصحف مثل المقتبس «لمحمد كرد علي» . ومن الصحف التي شهدتها حلب «فرات» في عام ١٨٦٧ .

أما في العراق فكان أول صحيفة تصدر «الزوراء» التي أنشأها الوالي مدحت باشا في بغداد عام ١٨٦٨، ثم صدرت صحيفتان رسميتان في الموصل والبصرة . لكن الأمر أختلف بعد إعلان الدستور العثماني في عام ١٩٠٨، إذ كثر عدد الصحف والمجلات في بغداد وأهمها «صدى بابل» و «الرقيب» .

لقد ساهمت الصحف والمجلات مساهمة عظيمة في نهضة النثر العربي الحديث بجعله ينتشر بين سائر طبقات الشعب ، وتسهل لغته ، وتتنوع موضوعاته وفنونه .

أن الصحافة أمدّت الأدب بالحيوية وصقلته وأبعدت عنه الزخرف والجناس والحشو ، وجعلته سهلاً واضحاً ففي مصر مالت الصحف ، بسبب مخاطبتها كل الطبقات في الأمة ، وحتى تنتشر في أوسع جمهور ممكن ، مالت إلى التبسيط في الأسلوب والتفكير ، فالصحفي يحتاج أن يبسط فكرته إلى أقصى حد حتى تكون واضحة أمام القراء وحتى لا يجدوا أدنى مشقة في فهمها وتصورها ، كما يحتاج أن يصفي لفظها ويختار لها لغة سهلة يسيرة حتى نقترب من الذوق البسيط السهل في الأمة ، وحتى يفهم القارئ ما يقرؤه ويعيه وعياً صحيحاً .